الفصل السادس

مصر

تفاوت آراء العلماء عن قدم الحضار فى مصر ، ويكاد يتفق كثيرون على أن ثقافة المصريين فى العصر الحجرى الحديث لم تضارعها ثقافة أخرى فى العالم فقد ترقت صناعة الأدوات الحجرية وتهذبت ووصلت إلى درجة عالية من الحدة والصقل ودقة الصنع . وقبيل نهاية هذا العصر ظهرت صناعات المعادن فى مصر ، فكشفت الحفريات عن مثاقب ودبابيس ومزهريات من النحاس ، إلى جانب حلى من الذهب والفضة .

وفى مدخل العصور التاريخية عرف المصريون القدماء الزراعة ، فقد عثر فى بلدة البدارى — وما أكثر ما عثر فيها — على جثث دفنت فى حوالى عام ٤٠٠٠ ق . م ، وقد حفظها جفاف الرمال وحرارتها ، فأبقى فى أمعائها قشوراً من حب الشعير . ويقال إن المصريين فى هذا التاريخ المبكر بدءوا ينظمون أساليب الرى بعد أن قطعوا الغابات وتخلصوا من أفراس نهر النيل وتماسيحه . وعرف عن المصرى الأول أنه كان شغوفاً بالتزين بالحلى والتعطر ، ويرتدى ثياباً بسيطة من الكتان ، وفى رأى أن الأولاد كانوا يظلون عرايا إلى سن الثالثة عشرة ، أما البنات فيدفعهن الخفر والحياء إلى تغطية ما حول الوسط . وكان لهؤلاء المصريين الأوائل كتابة مصورة ، واهتموا بتصوير ما يتصيدونه من حيوانات على الخزف الذى حمل أيضاً صوراً لنساء حزانى وأشكالا هندسية . ويرجع ماسبيرو فجر ثقافة المصريين الأوائل إلى ما بين ١٠,٠٠٠ و ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد(١) . على أن التاريخ المدون عن مصر يبدأ من عام ٤٢٤١ ق . م .

---

(١) Maspero, G. : The Dawn of Civilzation : Egypt and Chaldea, p 43

من أى الأجناس المصريون ؟ ومن أين جاءوا ؟ سؤالان محل نقاش أيضاً . وهل هم من أصل آسيوى أو أفريقى ؟ وهل جاءوا مصر عبر السويس ؟ أو من مضيق باب المندب وجبال الحبشة ؟ وهل هم من جنس البحر المتوسط الذى هزم أقواماً سود البشرة كانوا يسكنون وادى النيل وحلوا محلهم ؟ أو أنهم عاشوا دائماً على ضفاف وادى النيل منذ أجدادهم الأوائل ومنذ أقدم العصور؟

ويرجح ول ديورانت نقلا عن ثقاة فى التاريخ القديم أن غزاة وفدوا أو هاجروا من غرب آسيا وجاءوا معهم بثقافة أرقى من ثقافة البلاد ، وتزاوجوا مع هؤلاء الأهلين الأقوياء ؛ وأنجبوا سلالة هجينة كانت مطلع حضارة جديدة كما هو الشأن فى جميع الحضارات . ثم أخذت هذه السلالات تمتزج امتزاجاً بطيئاً حتى تألف من امتزاجها فيما بين عام ٤٠٠٠ و ٣٠٠٠ ق . م . شعب واحد هو الشعب الذى أوجد مصر التاريخية(١) . ويقول برستد(٢) إن وادى النيل سكنته أقوام ترجع إلى حوالى ١٨,٠٠٠ سنة قبل الميلاد .

ويقسم تاريخ مصر القديمة إلى ثلاث دول : الدولة القديمة ، والوسطى ، والحديثة . عاش الأقوام حول شاطىء النهر منقسمين أقساماً ، ولكل قسم شعار واحد ورئيس واحد وإله واحد ، حتى جاء وقت اتحدت فيه بعض الأقسام مع بعضها ، ثم تكونت مملكتان إحداهما فى الشمال والأخرى فى الجنوب ، ويعزى إلى مينا — وهو شخصية ما زال الغموض يحيطها — أنه وحد القطرين ، وأسس عاصمة له فى منف ، وأعلن قانوناً عاماً أوحى إليه به الإله توت ، وبدأ عهد الأسرات فى مصر القديمة .

وفى حوالى ٣١٠٠ ق . م . وضع أمحوتب الطبيب المهندس تصميم أول بناء حجرى فى العالم هو هرم سقارة المدرج ، وكان مستشاراً للملك زوسر ،

---

(١) ول ديورانت (ترجمة محمد بدران) : الجزء الثانى ص ٦٥

(٢) The Cambridge Ancient History, vol, 1 p, 40.

وتركت الأسرة الثالثة إلى جانب الهرم المدرج وهيكل زوسر الجنائزى تراثاً فى الطب ، وصناعة وفناً راقيين فى صناعات فخارية وخزفية رائعة . وعرفت الأسرة الرابعة ببناء الأهرامات الشامخة فى الجيزة ، والتى يرى فيها بعض المؤرخين تسخير المصريين لخدمة الفرعون ، وإن كان البعض الآخر يعزو هذا العمل الضخم إلى ضمان عودة القرينة – الكا – إلى الجسم فيستطيع الفراعنة المدفونون فى الأهرامات أن يعودوا إلى الحياة ويؤمنوا رعاياهم عند البعث . وكان المصريون القدماء يرون القرينة صورة مصغرة للجسم نفسه وأنها يضمن لها البقاء كاملا إذا ما احتفظ بالجسم آمناً من الجوع والتمزيق والبلى . وكان لابد أن يقدم للقرينة الغذاء والكساء وما تحتاجه من خدمات بعد موت الجسد . ولذلك أعدت المقابر بما يحقق لقرينة كل ما تريد ، فنقشت على الجدران رسوم ، وحفرت نقوش وصنعت تماثيل ، إلى جانب دفن الأسلحة والمعدات مع الجثة . واعتقد المصرى القديم أن رسم صورة لحقل يحرث يمكن أن يتحول إلى حقل حقيقى ينبت غذاء للقرينة . ولذلك اكتست جدران المقابر بالرسوم والصور لحيوانات وخدم وحشم وموائد بسطت عليها أشهى الأغذية .

وعمد المصرى القديم كى يحافظ على الجثة إلى تحنيطها ، ويقول هيردوت « أول ما يفعله المحنطون أن يخرجوا المخ من المنخرين بخطاف من الحديد ، فاذا ما انتزعوا جزءاً منه بهذه الطريقة أخرجوا ما بقى منه بادخال بعض العقاقير فيه ، ثم فتحوا فتحة فى جنب الميت بحجر حاد ، وأخرجوا منها جميع أحشائه . فاذا ما غسلوا البطن ونظفوه بنبيذ النخل رشوا عليه العطور المسحوقة ثم ملأوا البطن بالمر النقى وبعطر العشبة وغيره من العطور ، وأعادوه بالخياطة إلى ما كان عليه من قبل ؛ فاذا ما فعلوا هذا كله غمروه فى منقوع النطرون وتركوه فيه سبعين يوماً ، وتركه أكثر من هذا الوقت مخالف للقانون . فاذا انقضت هذه الأيام السبعون غسلوا الجثة ولفوها كلها فى أحزمة من القماش

---

(١) المرجع السابق ص ٧٢

المشمع ، وغطوا هذا القماش بطبقة من الصمغ الذى يستعمله المصريون عادة بدل الغراء . وبعد أن يتم هذا كله يسترد أهل الميت الجثة ويصنعون لها صندوقاً من الخشب على صورة إنسان ، فاذا ما أتموا صنعه وضعوا الجثة فيه وأحكموا إغلاقه ، وأودعوه لحداً وهو واقف يستند إلى جداره . وبهذه الطريقة يعالجون الأجسام التى يريدون الاحتفاظ بها علاجاً يكلفهم أبهظ النفقات» .

واستمرت الدولة القديمة من ٣٥٠٠ ق . م إلى ٢٦٣١ ق . م وشملت الأسر من الأولى إلى السادسة ، وأعقبتها فترة من الفوضى .

وجاءت الدولة الوسطى (٢٣٧٥ ق . م إلى ١٨٠٠ ق . م) وشملت الأسر من الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة . وكان من أشهر ملوك الدولة الوسطى أمينمحيت الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة ، وفى عصره ازدهرت الفنون وبلغت درجة من الإتقان لم تبلغها من قبل . ومن مشاهير ملوك الدولة الوسطى أيضاً سنوسرت الأول الذى حفر قناة تصل بين النيل والبحر الأحمر وصد هجمات النوبيين . واستطاع سنوسرت الثالث من بعده أن يخضع فلسطين لمصر . وانتهت الدولة الوسطى بفترة من الفوضى والنزاع على الحكم حتى غزا مصر الهكسوس . واستطاع هؤلاء الرعاة الأسيويون أن يقضوا على الكثير من مظاهر الحضارة المصرية ، كما حرقوا مدناً ونهبوا ثروات كثيرة .

وبطرد الهكسوس على يد أحمس بدأ عصر الدولة الحديثة ، أو عصر الإمبراطورية ، ويشمل الأسر من الثامنة عشرة إلى العشرين (١٥٨٠ ق . م إلى ١١٠٠ ق. م) . ومن ملوك هذه الدولة تحتمس الأول الذى مد حدود مصر شمالا إلى سوريا ، وأخضع كل البلاد الواقعة بين ساحل البحر وقرقميش ووضع الحاميات . وفرض الجزية . وحكمت بعده ابنته حتشبسوت وأخوها — زوجها — تحتمس الثانى . غير أن حتشبسوت نحت زوجها عن الحكم واستأثرت به . ولم تعترف حتشبسوت بأنها تقل عن الملوك الذكور ، بل رسمت نفسها على الآثار — إرضاء لرغبة عندها وإرضاء لرغبات شعبها —

فى صورة محارب ذى لحية ، مستأصلة فى الرسم ثدييها ، وسميت « إبن الشمس » و « سيد القطرين » . كما ارتدت ملابس الرجال والتحت بلحية مستعارة عندما كانت تقابل رعاياها . ويرجع الفضل لحتشبسوت فى إرسال بعثة إلى بونت (الصومال) لجلب البخور وفتح أسواق جديدة بهذه الأنحاء ، وهى صاحبة الدير البحرى ، ومصلحة ما خربه الهكسوس ، وباكورة من دفن فى وادى الملوك من الفراعنة .

وخلفها شاب فى الثانية والعشرين من عمره هو تحتمس الثالث بطل مجدو وهازم العاصين والثائرين ، وفاتح أرض واسعة فى غربى آسيا . وفى خلال خمس عشرة حملة أخضع تحتمس الثالث شرق البحر المتوسط ، مكوناً إمبراطورية ضخمة قصبتها (طيبة) التى نعمت بعصر ذهبى من رغد العيش . وبفضل أسطوله أصبح لواء الزعامة فى البحر المتوسط لمصر . ويعزى إلى أمنحوتب الثانى أنه عاد إلى (طيبة) بعد غزوة فى شرق البحر المتوسط يجر فى ركابه سبعة ملوك أسرى . ودامت سيادة مصر الحربية ودام ازدهارها فى الفنون زهاء قرن كامل من الزمان ، نعم فيه آلهة طيبة بالقرابين والهياكل المغطاة بالذهب . ثم بدأت الرياح تأتى بما لا تشتهى السفن ، وبدأ عصر الاضمحلال ، ثم خضعت مصر فريسة للغزو من الشرق والغرب والشمال .

الديانة والفلسفة

قدس المصريون القدماء الحيوانات ، ويقول ماسبيرو إنه عندما عاش المصريون فى زمن ما قبل التاريخ منقسمين إلى أقسام ، اتخذ كل قسم حيوانا يطعمه إلى جانب الإله الخاص به . وقد قدس كل قسم حيوانه إما رهبة منه فيتقى شره ، أو رغبة فى استرضائه لما يجلبه له من خير ، فقد قدسوا التمساح والأسد ، كما قدسوا العجول والكباش . أما فى العصور التاريخية فقد آمن المصريون بأن الحيوانات التى عبدوها قد حلت فيها أرواح الآلهة التى كان عليها أن تسكن جسداً تتجسد فيه عند هبوطها إلى الأرض ، فالنسر مثلا لم يكن هو

نفسه هوروس الإله ، ولكنه مأوى لبعض أسرار هوروس(١) . على أن عقيدة التجسد هذه لم تقتصر على تجسد الإله فى حيوان ، فتارة تجد هوروس متجسداً إنساناً ، أو إنساناً له رأس نسر ، أو نسراً له رأس إنسان . ثم أحل المصريون القدماء روح الإله فى أكثر من حيوان . فتارة فى عجل ، وأخرى فى تمساح ، وثالثة فى قطة ، ورابعة فى طائر ، وتطور الأمر إلى أن أصبحت العبادة لا تقتصر على حيوان واحد من بين القطط مثلا ، ولكنهم عبدوا القطط جميعاً .

وآمن المصريون القدماء بأن هذه الحيوانات التى عبدوها تعلم الغيب ، وتثيب وتعاقب ، بل إنها تتكلم لتنقذ شخصاً على وشك الهلاك . وكما تكلمت الحيوانات المؤلهة والطيور ، فقد تكلمت بعض النباتات كالأشجار التى حلت فيها أرواح الآلهة ... « وبينما كان فرعون جالساً ذات مرة مع زوجته التى كان يحبها حباً جماً تحت إحدى الشجرات المقدسة فى سرور وسعادة ، إذ بالشجرة تنحنى على الملك وتسر فى أذنه أن زوجته خائنة (٢) » .

وعبد المصريون شجرة الجميز والنخلة . وقدموا للشجر قرابين من الخيار والعنب والتين . ثم ارتقت بعد ذلك هذه العقيدة وتقدمت فى مسار الفلسفة حتى قررت أن الإله يحل فى كل كائن حى ، بل فى كل جزئية من جزئيات الطبيعة ، وأنه ذو مظاهر متعددة .

وكان لكل مقاطعة أو قسم أو جهة إلهها الذى يتحمس له عباده ويحاربون دفاعاً عنه ، ثم تطور الأمر فأصبحوا يحاربون من أجل نشر عبادته . وهذا ما فعله حاكم مدينة (ليتوبوليس) الذى بسط سلطان إلهه هوروس على ما جاوره من مقاطعات فى الوجه البحرى . وتروى الأساطير أن سلطان هوروس امتد جنوباً ولكنه لم ينعم طويلا بهذا المجد ، فقيض له عدو لدود هو الإله سيت إله الشر . وتجسد سيت فى حيوان ذى أربع ، كريه المنظر ، حقد على

---

(١) محمد غلاب الفلسفة الشرقية . ص ٣٣

(٢) Maspero : op. cit., pp. 120-121

جمال عيني هوروس – وكانت الشمس عينه اليمنى والقمر عينه اليسرى ، إحداهما تضيء العالم نهاراً والأخرى تضيئه ليلا – وتعارك سيت مع هوروس وضربه مراراً فى عينه ، فكانت الشمس تكسف ، والقمر يخسف . وطالت الحرب بينهما .

ثم ظهرت آلهة أخرى وقفت بجانب هوروس (أحياناً تكتب حوريس) منها توت وإيزيس وأوزوريس . وانتصر أوزوريس ،وقال الكهنة إن انتصار أوزوريس على غيره من الآلهة حتى على هوروس مرجعه أن الأخير ابن لأوزوريس ، ثم تزوج أوزوريس من إيزيس وعينا توت وزيراً . ثم كون أوزوريس وإيزيس وتوت مملكة إلهية،غير أن سيت إله الشر دبر حيلة ضد أوزوريس وألقاه فى النيل ، ولما أنقذته زوجته فاجأها سيت وقطع زوجها قطعاً بلغت ثنتين وسبعين ؛ ورمى كل قطعة فى مقاطعة من مقاطعات مصر . غير أن الزوجة الوفية إيزيس بمعاونة آلهة أخرى جمعوا هذه القطع وقرأوا عليها التعاويذ ، حتى عادت إلى الحياة خائرة القوى ضعيفة . وبمجرد أن أنسل هوروس ترك أوزوريس الأرض ليكون إلهاً للموتى ، مخلفاً مكانه هوروس الذى حقق الهزيمة الكاملة القاضية على إله الشر سيت ، ولم ترض إيزيس أن يقتل هوروس عمه سيت ، غير أن هذا الإله أقام دعوى أن هوروس ليس إبناً لأوزوريس ومتهماً إيزيس فى شرفها » ومطالباً بأحقيته بمكان أوزوريس . وبفضل دفاع توت ثبتت بنوة هوروس لأوزوريس ؛ على أن النزاع ظل محتدماً .

ونهض فرعون جرىء هو مينا ، وأعلن أن هوروس حل فى جسده ، كما أعلن أن سيت أيضاً حل فى جسده ، وعليه أن ينفذ أمر الإلهين المتنازعين ، فضم الوجهين البحرى والقبلى ، وأصبح ملك القطرين ، ومصدر (الخير والشر) و (النور والظلمة) . وبتألية الفرعون حياً أصبحت عليه التزامات ، لعل أهمها مباشرة الطقوس الدينية اليومية ؛ حتى يستمر النيل فى مده مصر بالحياة ، وحتى يستمر الزرع ينبت والشمس تشرق وتغرب . وعبد المصريون

الفرعون حياً حتى كان أشدهم قرباً منه وأكثرهم حظوة ينال شرف شم قدمى الفرعون ، وذهل المصرى القديم عندما وجد الملك يموت .. الإله حق عليه ما يقع لكل إنسان ، وقد ظنوه خالداً ... وأفتى الكهنة أن الفرعون لا يموت كما يموت الناس ؛ فاذا ما عجز جسمه المادى عن القيام بالأنشطة العادية يخرج منه السر الإلهى أو الروح القدس ليحل فى جسم ابنه الشاب الممتلىء حيوية. على أن الفرعون بعد موته يظل ينصح ابنه الحى ، ويوجهه فى أمور الحكم من مكان إقامته فى مملكة الموتى ، مملكة أوزوريس . وكان المفروض أن تعود الروح – متى شاءت – من عالم الموتى إلى عالم الأحياء من خلال فرجة فى القبر ، فتخرج إلى الجسد الذى يجب أن يكون دائماً مهيئاً لاستقبالها ، ولذلك عنى المصريون أشد العناية بالتحنيط ، ثم صنع التماثيل ، وإلا تاهت الروح وتشردت إذا حل التحلل بالجسد . وكان الطريق إلى مملكة أوزوريس تحت الأرض محفوفاً بالكثير من المشاق والمخاطر ، فكان الدخول إليها عسيراً حتى على الفرعون نفسه .

وظهر فى نهاية الدولة القديمة إله من مدينة الشمس (هليوبوليس) صارت له السيادة بفضل تحالف كهنته مع ملوك منف . وسمى هذا الإله « رع » . وكان رع يزور الملكة ليلا حتى تحمل الفرعون الجديد ، وبذلك أصبح رع الأب المباشر الفعلى لكل الفراعنة ، كما كان رئيس الآلهة الأخر ، وهم : توت إله السماء ، وإيزيس إلهة الأرض الخصبة ، وأوروريس النيل ، وجيب الأرض ، وسو الهواء ، وتيفنيت الفراغ ، وسيت الصحراء ، ونفتيس الأرض القاحلة .

وكانت السلطة لرع ، ولكن فى نهاية الأسرة السادسة كان حكام الأقاليم قد نجحوا فى التمرد على سلطة الفرعون ، وعلى رع ، وأخذ كل منهم يعبد إلهاً محلياً فخمه وعظمه ومنحه أرقى الألقاب وأسماها ، وسادت فوضى وتساءل نفر من الناس عن قوة رع ، وكيف يترك دماء تسيل ، وخراباً يحل ، ولا يستخدم سلطته ككبير للآلهة ؛ فيمنع تناحر الخلق وتنافس حكام المقاطعات ؟

ولكن رع لم يفعل شيئاً ، وزاد تشكك المتشككين ، الذين رأوا الإله الكبير تقع عليه الإهانات ، ومع ذلك فالشمس تشرق وتغرب ، والنيل يفيض والأرض تنبت زرعاً .

وكان هناك إله محلى صغير هو آمون إله طيبة ، وعندما تولى عرشها ملك جرىء قوى (امنمحعت الأول) فرض إله مدينته على مصر كلها ، وضرب بيد من حديد على الفوضى ، وأعاد هيبة الفرعون والإله ، وبالتبعية استرجع كهنة الإله سلطانهم . وزاد هذا السلطان حتى بدأ الفرعون نفسه يخشاهم . وفكر الفراعنة فى موقفهم إزاء كهنة آمون ، وتوصلوا إلى إضعاف هذه السلطة باضعاف سلطة الإله نفسه ، ولن يتأتى هذا إلا باعادة مجد آلهة زال نفوذها . ولهذا نجد تحتمس الرابع يقول : إن أبا الهول — وهو إله قديم عرف فى عصور ما قبل التاريخ وكان يمثل كائناً بشعاً مخيفاً لم ينظره أحد ولكنه كان يظهر من وقت لآخر ليبث الرعب والفزع فى قلوب البشر ، ولهذا عبدوه حتى يتقوا شره — جاءه فى نومه وأمره بازالة الرمال التى تغطى تمثاله . فأزالها وبنى المعابد لعبادته . كما أحيا أمنحتب (أمنوفيس) الثالث عبادة رع ، ومزجها بعبادة آمون ، وأصبح الإله هو (أمون — رع) غير أن الفرعون الشاعر أمنحتب الرابع لم يعجبه هذا الخلط فى الآلهة ، وهذا العهر المقدس ، وهذا الهذيان العقائدى ، فخرج على البشرية بدين جديد ، بدأه بسحق عقائد آمون كلها واضطهاد كهنته ، بل أنشأ عاصمة جديدة لإلهه الجديد (آتون) وغير إسمه إلى إخناتون بدلا من إسمه السابق المنتسب للإله آمون ، وإخناتون تعنى « آتون راضى » . ورأى أخناتون أن إلهه رب الأمم كلها ، وآتون الشمس مصدر الضوء ومصدر كل حياة على الأرض ، وبنى عاصمة جديدة أطلق عليها « أخيتاتون » أى مدينة أفق آتون .

وكان أول داع للتوحيد عرفته البشرية مؤمناً كل الإيمان بعقيدته ، ولكن فى تعصب طاغ على غيرها من العقائد . وتسرع فى إصدار أحكامه بتخريب كل ما يحمل إسم آمون ، مما أغضب فئات كثيرة ، متناسياً كل ما جبل عليه

المصريون من حب لآلهتهم التى أعدمها محرماً عبادتها ومهدماً هياكلها . وقام الكهنة الذين فقدوا كل شىء يتآمرون عليه فى الظلام ، وانضم إليهم أصحاب الحرف التى اندثرت باندثار الهياكل .. بل إن القواد وكبار القوم حقدوا عليه ، لما وجدوه فيه من إهماله لشئون الدولة إهمالا أدى إلى تفكك داخلى وضعف فى الخارج على حساب اهتمامه بنشر عقيدته . وبينما هو ينعم بحياة سعيدة هادئة مع زوجته الجميلة نفرتيتى وبناته السبع غزا الحيثيون بلاد الشام ، وكانت خاضعة لمصر . وانقطع سيل الذهب الذى كانت تجبيه مصر جزية من الولايات الخاضعة لها ، وبدأ الفقر ينتشر مع انتشار كراهية الكهنة وغيرهم نحو أخناتون .. ومات الملك الشاعر فى الثلاثين من عمره عام ١٣٦٢ ق . م . وخلفه بعد عامين توت عنخ آتون الذى غير إسمه إلى توت عنخ آمون ، وأعاد عاصمة الملك إلى طيبة ، وأزيلت آثار آتون وأخناتون الذى كان يسمى حينئذ « المجرم الأكبر » . وخلف توت عنخ آمون — الذى ترك كنوزاً هائلة تطوف العالم اليوم وتذهل الناس بروعتها وتلهم المصممين والفنانين — القائد العسكرى حور محب الذى أعاد لمصر ممتلكاتها ، ثم جاء بعده سيتى الأول صاحب بهو الأعمدة فى الكرنك . وآخر الفراعنة العظماء كان رمسيس الثانى الذى ملأ خزائن مصر بالذهب الذى استخرجه من جوف أرض بلاد النوبة بعد أن أخضعها ، ثم أخضع البلاد الأسيوية ونال نصراً هائلا فى قادش عام ١٢٨٨ ق . م . وهناك رأى يقول : إن رمسيس الثانى هو فرعون موسى . وذريته حكمت مصر زهاء قرن من الزمان ، فقد أنسل مائة وخمسين ، بل أنه تزوج من بعض بناته ليلدن نسلا قوياً .

وفى عهد رمسيس الثالث بدأ يعود النزاع المرير على الثروة والسلطة بين رجال الدين والفرعون .. وشارك الكهنة فى استنزاف ثروات الدولة على حساب طبقات الشعب الكادحة . وبلغت سلطة الكهنة أن تولى أحدهم الحكم ، وتحولت الإمبراطورية المصرية إلى حكومة دينية يفتعل الدين فيها ما شاء له الهوى . وباسم الدين والكهنوت تقلصت الحياة ، وبدأ معين الثروات ينضب

وتزداد البلاد فقراً ، فلم يكن الكهنة على مقدرة سياسية أو عملية تتيح لهم الإبقاء على الثروات .

وبينما مصر تهوى تدريجياً ، كانت شعوب فى غرب آسيا وشرق البحر المتوسط تنمو ، مثل بابل وأشور وفارس وفينيقيا وسوريا وفلسطين . كما بدأت معالم الحضارة تطل على جنوب شرقى أوروبا ، فاستولى الدوريون على جزر بحر إيجه وكريت ، وازدهرت التجارة مع بلاد جنوب أوروبا كايطاليا و أسبانيا. ثم بدأت أمواج الغزو الخارجى تدق أبواب مصر ، فغزاها الليبيون من الغرب عام ٩٤٥ ق . م ، والأحباش من الجنوب عام ٧٣٢ ق . م ، والأشوريون من آسيا عام ٦٧٤ ق . م ، ثم الفرس من الشرق عام ٥٢٥ ق . م ثم الإسكندر آتياً من آسيا عام ٣٣٢ ق . م ، ثم تحولت مصر إلى مزرعة كبرى للقمح تعمل لحساب روما فى عام ٣٠ ق . م .

الحياة الاجتماعية فى مصر الفرعونية

لم يكن فى مصر الفرعونية نظام طبقى كالذى عهدناه فى الهند ،ولم يتحكم ميلاد الفرد فى وضعه فى طبقة معينة لايستطيع الخروج منها . ومع ذلك فقد عهدنا طبقية ، ولكنها مفتوحة إلا من الإنتساب لأسرة الفرعون الذى ألهه المصريون فى أوقات من تاريخهم .

وعلى رأس المجتمع المصرى القديم كان الفرعون المؤله وعائلته وكبار رجال البلاط . وتأليه الفرعون أعطاه الحق فى حكم الناس الذين وجبت عليهم طاعته وتقديسه . والفرعون هو مصدر الحكمة والمعرفة(١) .

ويلى هذه الطبقة الكهنة وبعض النبلاء ، وهم يكونون الارستوفراطية الإجتماعية والفكرية فى مصر ، ومن كبار رجال هذه الطبقة القواد العسكريون خصوصاً فى العصور التى حققت فيها مصر نصراً عسكرياً . وقد كون العسكريون طبقة تلت مباشرة الكهنة . ثم نجد طبقة من كبار التجار وأصحاب

---

(١) Thut, I. N. The Story of Education, pp. 73-74

المهن الأثرياء ، وهؤلاء كونوا الطبقة المتوسطة . ثم تأتى طبقة قوامها الحرفيون والرعاة والفلاحون والعبيد . وتكون هذه الطبقة الأخيرة السواد الأعظم من سكان مصر ، ولم يترك لنا أفراد هذه الطبقة ما يستدل به على نظام حياتهم اليومى إلا القدر اليسير ، فلم يكن معقولا أن تحوى قبورهم ، فى تواضعها الشديد ، آثاراً . وتوجد فى داخل الطبقة الواحدة درجات ، فالكهنة لم يكونوا كلهم فى درجة واحدة لا من حيث المركز ولا من حيث الثراء . ومع ذلك تشير الكتب التاريخية إلى أن ربع المدفونين فى مقبرة أبيدوس الهائلة كانوا من الكهنة . كما تحدثنا هذه الكتب عن ١٠٧,٠٠٠ أسير كانت الهياكل والمعابد الدينية تمتلكهم ، وكان عدد سكان مصر حوالى سبعة ملايين نسمة .

وكان التفاوت واضحاً بين حياة علية القوم وسواد الشعب ، تفاوت فى الملابس والغذاء والسكن ، ثم وقت الفراغ . وكان من الممكن أن ينتقل فرد من طبقة إلى أخرى ، كما بينت سابقاً ، ولكن بعد جهد كبير . وقد نالت النساء منزلة مرموقة فى المجتمع المصرى القديم ، فقد تساوت النساء مع الرجال فى الطبقة الواحدة التى ينتمون إليها . وكانت هناك آلهة منهن عبدها الشعب .. بل إن فى عقود الزواج شرط طاعة الزوج لزوجته ، كما كانت النساء يمتلكن ويورثن .

كان المستوى الأخلاقى عالياً . وقد روعى هذا بدقة كما تنبئنا بذلك الكتابات الأدبية وما خلفه المصريون من عديد من الحكم والنصائح ، ففى بردية موجهة إلى الأطفال : « ينبغى لك ألا تنسى أمك ... فقد حملتك طويلا فى حنايا صدرها وكنت فيها ثقيلا ، وبعد أن أتممت شهورك ولدتك ثم حملتك على كتفها ثلاث سنين طوالا وأرضعتك ثديها فى فمك ، وغذتك ، ولم تشمئز من قذارتك . ولما دخلت المدرسة وتعلمت الكتابة كانت تقف فى كل يوم جانب معلمك ومعها الخبز والجعة جاءت بها من البيت » .

وكان أفراد الشعب يقنعون بزوجة واحدة ، ولكن كان للملوك والأمراء

وبعض النبلاء زوجات ، ولم يكن أمراً غير عادى أن يتزوج الملك أخته أو ابنته . وكان الطلاق نادراً إلا فى عهد الاضمحلال ، وكان من حق الزوج أن يخرج زوجته من بيته دون أى تعويض إذا ارتكبت الفحشاء . ويلوح من بعض النصوص أن المرأة هى التى كانت تخطب الرجل وهى التى تطلب تحديد مواعيد اللقاء . وكثيرات من البنات تزوجن فى سن العاشرة(١) .

وكان الرجال والنساء على السواء يتزينون ويتحلون ، ولم يكن هذا فى عصر الرخاء قاصراً على طبقة واحدة .. وكان لكل رجل خاتم فى أصبعه ، ولكل امرأة قلادة تزينها . ولعل ما تركه المصريون القدماء من الحلى المحفوظة فى المتاحف اليوم لأكبر دليل على التقدم الفنى مما أصبح من (موضات) عصرنا .

التربية فى مصر القديمة

نظراً لتعقد المجتمع والحياة المصرية القديمة ، كان لابد للمصرى أن يتقدم خطوات أبعد من الإجراءات التربوية البسيطة التى كانت موجودة فى مجتمعات أقل فى المستوى الحضارى . ولتعقد الحياة المصرية القديمة فلم يكن من المستطاع أن يكتسب الفرد الخبرات اللازمة لخلقه عضواً فى المجتمع من مجرد عمليات تقليد الكبار . ولهذا فان تعليماً ونظاماً مدرسياً معيناً كان لابد من وجوده . وفتحت مدارس ومعاهد علمية ، طرق أبوابها التلاميذ ليكتسبوا الخبرات الثقافية والتكنولوجية اللازمة لمجتمع ضرب سهماً وافراً فى التقدم الحضارى وخاصة فى ميدان الصناعة . على أن غرض المدارس بصورتها النظامية كان أكثر اهتمامه بالأمور المتعلقة بتعلم اللغة والأدب وأيدلوجية الدولة . وقد أخضع الكهنة لنفوذهم الفنون والحرف والعلم ومختلف المناشط الفنية العليا فى الدولة . ولم تكن هذه الفنون والحرف تعلم فى المدارس لكل من يريد تعلمها ،

---

(١) Mulhern, op. cit., pp. 65-66.

بل تدخلت طبقة الكهنة فى الحد من دارسى الرسم والنحت والفن المعمارى والقانون والطب والهندسة ...الخ . وقصد الكهنة من ذلك إلى ربط هذه الفنون والمهارات بعجلة التقدم الحضارى فى المجتمع المصرى القديم ، فهم المسيطرون على توجيهها وتحديدها ، بل عمل الكهنة بسلطاتهم الواسعة المطلقة على صهر الاتجاهات العلمية والفنية والحرفية فى بوتقة التقاليد التى كانوا هم أنفسهم يوجدونها ويعملون على تنميتها . وكان الخروج على هذه التقاليد كفراً وزندقة بل ثورة على الإله .

غرضه التربية

كان غرض التربية كما ظهر فى التعليم النظامى فى المدارس يهدف إلى تنمية ثقافية وتنمية مهنية . وكان هناك فنون وحرف كثيرة جداً (بالقياس إلى غير مصر من الدول فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ الإنسان المؤرخ) ، وكانت فى أيدى جماعات من الكهنة يحتلون درجات دنيا من طبقتهم . ولنا أن نتوقع سيطرة الكهنة ، فكان جل عمل هؤلاء الفنانين والحرفيين فى الأهرامات والمعابد والمقابر ، أى حيث يدفن الفرد فى إنتظار عودة (الكا) إليه ، والموت والدفن والبعث أمور من اختصاص الكهنة .. طبعاً .

ونلمح فى التاريخ المكتوب عن مصر القديمة تكوين نقابات مهنية ونشأة (ورش) لصناعة أدوات ومهمات ومعدات الدفن بكميات هائلة . ولعلك تلمح ما للدفن من أهمية فى حياة المصرى القديم ، فقد كانت للموت تجهيزات ومتطلبات عاش عليها عدد كبير من أصحاب الحرف والمهن والفنون . ولأهمية متطلبات الدفن ، وخوفاً من استغلال التجار لها ، فقد كانت لها تسعيرة رسمية . ولاتساع علاقات مصر بدول العالم المعروف وقتئذ والتى كانت بينها وبين مصر صلات ، ولتقدم مصر الفنى والصناعى - فقد انهالت الطلبات على المنتجات المصرية ، وقد أدى هذا إلى نمو التربية المهنية ، وكان هناك فنيون على مستوى عال ، وفنيون يمكن أن نطلق عليهم بالتعبير الحديث المنفذين .

وكان للكهنة طبقة أوضحت التفاوت فى درجاتهم ، وكان منهم المتخصصون فى الطب والمكونون لجماعة الأطباء . ولم يكن هناك محامون بالمعنى العصرى ولا قضاة ، فكان صاحب وظيفة كبرى يحكم فيما يعرض عليه ، ومن فئة الموظفين الكبار تكونت جماعة القانون ، الذين لهم حظوة عند الفرعون ، أما الكتاب الذين يتمثلون فى (الكاتب المصرى) الذى نعهده فى التماثيل والرسوم جالساً القرفصاء ، فكان عددهم كبيراً ، وعليهم مسئولية المحافظة على سجلات الدولة والمعابد وكتابة المراسلات .

ويتضح الاتجاه العملى المهنى فى التربية المصرية القديمة ، لكن فوق كل هذا كان على هذه التربية أن تحافظ على المدنية المصرية بالمحافظة على التراث الثقافى ، فهدفت التربية إلى هذا عن عمد لتحقيق أغراض محددة .

المناهج

(ا) القراءة والكتابة : تحددت المناهج بحاجات المدنية المصرية ، كما عملت المناهج على تحقيق الأهداف التربوية ، واشتملت المناهج على قراءة وكتابة المخطوطات ، وقد اعتقد المصريون أن إلهم توت هو الذى اخترع الكتابة ثم علمها لسكان الوادى الأوائل ، والظاهر أن أقدم الكتابات المصرية كانت تصويرية ، فتعبر عن الشىء برسم صورة له ، ولما كانت بعض المعانى مجردة إلى حد يصعب تصويرها تصويراً حرفياً فقد استعيض عن التصوير بوضع رموز للمعانى ، فمثلا مقدم الأسد يعبر عن السيادة ، وفرخ الضفدع عن الآلاف ... بل إن مجموعة صور كانت تعبر عن لفظ واحد ، فكان الكاتب يقطع الكلمة الصعبة مقاطع ويبحث عن الألفاظ المشابهة لهذه المقاطع نفسها فى النطق والمغايرة لها فى المعنى ، ويرسم مجموعة الأشياء التى توحى بها أصواتها ، حتى استطاع فى آخر الأمر أن يعبر بالعلامات الهيروغليفية كل ما يريد .. ثم حدث تطور فاستخدمت الصورة لتدل على حرف ،

بالعلامة الدالة على اليد (وهى تنطق بالمصرية القديمة دت) أصبحت تعنى (د) أيا كان تشكيلها ، والعلامة الدالة على الثعبان تعنى حرف (ز) .. إلخ(١) . وأصبح هناك أربعة وعشرون حرفاً هجائياً انتقلت مع التجارة الفينيقية إلى البلاد الواقعة حول البحر المتوسط . هذا، ويقول برستد : إن المصريين عرفوا الحروف الهجائية قبل غيرهم بخمسة وعشرين قرناً(٢) . ومع وجود الحروف الهجائية إلا أن المصريين لسبب مجهول ، استمروا يخلطون بينها وبين الصور الدالة على الرموز . على أن فرقاً كبيراً يلحظ بين اللغة المكتوبة واللغة العادية التى يتعامل بها الناس فى حياتهم العامة ، ولذلك كانت هناك لغتان .

وكانت مهنة الكاتب الخطوة الأولى للترقى إلى المناصب الكبرى ، فتعلم الكتابة لم يكن سهلا ميسوراً إذا عرفنا أنها تتكون من ٥٠٠ رمز ، ولذلك فكان الكتاب يعفون من الأعمال اليدوية ، وينالون منحاً ملكية . وينصح أب ابنه ليكون كاتباً فيقول له : « لم أر مطلقاً الحداد أصبح سفيراً ، ولا الصائغ مبعوثاً ، ولكننى رأيت الحداد يتلظى بالنار أمام الفرن ، وأصابعه كالتمساح ورائحته أقذع من السمك والبيض »(٣) . وفى آراء تاريخية أن المثقفين من المصريين القدماء هم الذين تمتعوا بحريات شخصية .

ولاتصالات مصر بالخارج فقد اشتمل المنهاج على تعلم لغات أجنبية ؛ ليصبح الكاتب قادراً على كتابة مراسلات لأجزاء الإمبراطورية المترامية . وقد استخدم الكتاب ورق البردى المستخرج من نبات البردى الذى كان ينمو على شاطئ النيل ، ولعل كلمة papyrus هى التى اشتقت منها كلمة paper أى الورق . وكان المصريون يصنعون حبراً أسود لا يتلاشى ، بمزج الصناج

---

(١) ول ديورانت (ترجمة محمد بدران) : قصة الحضارة — الجزء الثانى ص١٠٨–١٠٩

(٢) Breasted, J. H. : A History of Egypt, p. 32.

(٣) Mulhern, J. ,op. cit. p. 74

والصمغ النباتى بالماء على لوحة من الخشب . أما القلم فكان قطعة بسيطة من الغاب يعالج طرفها ليصلح للكتابة .

(ب) الأدب : خلف المصريون ثروة من المخطوطات وما يمكن أن نطلق عليه كتباً مدرسية ، حوت حكايات خرافية ، وأخبار الرحلات وسيراً شائقة من أعمال مشاهير الرجال . وأهم الكتب هى : كتب الأمثال ، والتعليم الخلقى ، والمواعظ ، والسلوك الطيب . فهذه « تعاليم بتاح حوتب » التى يرجع تاريخها إلى عام ٢٨٠٠ ق . م . والتى تؤكد أن مصر بدأت الفلسفة الأخلاقية فى العالم . ولعل أقدم ما بقى من الأدب القديم هو « نصوص الأهرام » وقد نقشت على جدران أهرامات الأسرتين الخامسة والسادسة ، وهى موضوعات دينية ورعة . وقد حفظت لفافات من البردى فى قوارير ترجع إلى حوالى ٢٠٠٠ ق . م ، وفيها قصص يراها بعض المؤرخين قريبة الشبه جداً بقصة روبنسن كروزو ، وأخرى شبيهة بسندريلا ... ومن القصص ايلصرى القديم « سنوحى » و « الملاح الغريق » .

وإلى جانب دراسة هذا الأدب كان التلاميذ يدرسون الأغانى والأهازيج الدينية ، وكانوا يستخدمون الناى والقيثارة ضمن آلات موسيقية أخرى . وكان الأدب الدينى محور الدراسة فى كليات المعابد . وبلغ التعمق فيه درجة عالية .

(ج) العلوم : وكان على كهنة المستقبل أن يدرسوا إلى جانب مناهج الأدب مناهج فى العلوم . ودراسة العلوم حتمتها الحياة المصرية وطبيعتها ، بحكم اعتماد المصريين على النيل ، وحسابهم للأعياد الدينية ، وبنائهم لمقابر شاهقة تحفظ جسد الفرعون ، ثم تحنيطهم الجثث حتى تعود (الكا) إليها . ويرى بعض المؤرخين أنه مع التقدم الذى يثير الإعجاب والذى أحرزه المصريون القدماء فى العلوم ، إلا أن السحر والخرافات قد أثرا فى إمكانية إحراز تقدم وتفوق أكثر . ويلوح أن السحر والخرافات تدخلا فى كل فروع العلوم إلا فى الرياضيات .

ويكاد الكهنة يستأثرون بالعلوم ، فكان معظم العلماء منهم ، وساعدهم على ذلك فراغ طويل أهلهم للبحث والدراسة ، بل إنهم يرجعون العلوم واختراعها إلى الإله توت (تحوت) إله الحكمة فى حوالى ١٨,٠٠٠ ق . م ، حينما حكم مصر ثلاثة آلاف سنة . والثابت تفوق المصريين فى الرياضيات التى ساعدتهم فى بناء الأهرامات ، وقياس الأراضى التى كان ا: ل يغمرها ، وفى حساب الأوقات .

وقد عرف المصريون عمليات الضرب ، ويلوح أنهم لم يعرفوا طريقة القسمة فى رأى بعض المؤرخين . وفى رأى آخر أنهم عرفوها . ولم يعرفوا الصفر واستخدامه وكانت معلوماتهم عن الكسور طفيفة ، فقد عرفوا الكسور الإعتيادية ولكن كان بسط هذه الكسور العدد (١) على الدوام ، كما عرف المصريون معادلات الجبر من الدرجة الأولى ، وقاس المصريون القدماء مساحة المربع والدائرة والمكعب ، وقاسوا حجم الاسطوانة والكرة .

ونظراً لأن الكثير من المعلومات العلمية كانت من الأسرار التى استبقاها الكهنة لأنفسهم : لم يذيعوها — فقد أصبح من الصعب الحكم على مدى ما عرفه المصريون القدماء ، اللهم إلا من المخلفات التى تبرز مدى ما وصلوا إليه من تفوق علمى : فلا شك أنهم كانوا على علم كثير بالهندسة المعمارية ، مما يثير دهشة المهندسين المعاصرين .

أما عن الطب ، فصحيح أنه تأثر فى بداية الأمر بالسحر ، إلا أن المصريين القدماء توصلوا إلى معلومات عن جسم الإنسان لم يصلها شعب من شعوب العصور القديمة . كانوا على دراية بالأوعية الدموية ، وأنها تتفرع من القلب ، فسواء وضع الطبيب يده على جبهة المريض أو يده فانه يحس بعمل القلب : ولكنهم لم يعرفوا الدورة الدموية . وعرف المصريون مكان الأعضاء فى الجسم ولكنهم لم يتقدموا فى تشريح الجسم : وقد استخدموا فى علاج الأمراض الشائعة زيت الخروع والخل والعسل إلى جانب تركيبات مراهم ، وقد تركوا لنا بردية بأسماء سبعمائة دواء لمعالجة أمراض تبدأ من عضة الأفعى إلى حمى

النفاس ، بل استعمل الأطباء أقماع اللبوس لمنع الحمل. على أن الغريب أن بعض الوصفات كانت تجمع بين الناحية العلمية والسحر ، فنقرأ فى تذكرة طبية عن استخدام دم السحلية ، وأذن الخنزير وأسنانه ،، ومخ السلحفاة ، وكتاب قديم مقلى فى الزيت ... بل وروث الحمير وبراز الكلاب والقطط(١).

ونبغ المصريون القدماء فى الجراحة ، وقد عرفوا التخصص فى مهنة الطب فكان هناك أطباء متخصصون فى اضطرابات المعدة وأطباء العيون ، والمتخصصون فى أمراض النساء والتوليد ، وأطباء للأسنان .

(د)طرق التدريس والنظام : غلب على تعليم القراءة والكتابة استخدام الأشكال التقليدية فى التدريس وأهمها التقليد والتكرار ، خاصة إذا علمنا صعوبة تعلم اللغة المصرية القديمة . أما فى تعلم المهن فقد اتبع نظام التلمذة الصناعية ، حتى بالنسبة للكتاب ، فقد كانوا يمضون بعض الوقت فى المكاتب الرسمية . وأما الأدب فكان يعلم بطريقة الحفظ والاستظهار ، وخاصة الأدب الدينى . وأما مناقشة النصوص الدينية وشرحها فكان حقاً قاصراً على كبار الكهنة . كما كانت النصوص الدينية والأدبية لا تقبل مطلقاً أى تحريف أو إضافة أو حذف ، ولذلك فقد اعتمدت طريقة تدريسها على الحفظ الآلى ، وقد أدى هذا إلى نوع من الثبات فى التقاليد المصرية القديمة والحياة الاجتماعية . ووقع العقل أسيراً لقدسية الكلمات التى لو أخطأ المصرى القديم فيها حقت عليه لعنة الآلهة وغضبها . وكان التلاميذ يكلفون بكتابة مقالات عن المعتقدات السحرية والخرافية ، ولعل هذا أيضاً من أسباب استمرار بقائها :

وكان النظام فى المدارس قاسياً ، وكان الجلد شائعاً إذا ما ارتكب التلاميذ مخالفة لأوامر أو أهملوا أداء واجب .. بل وصل الأمر إلى حبس المخالف مدة وصلت إلى ثلاثة أشهر (٣) . ويلوح أن المصريين القدماء اعتقدوا فى ضرورة

---

(١) ول ديورانت (ترجمة محمد بدران) : قصة الحضارة . الجزء الثانى – ص ١٢٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٥ .

(٣) Mulhern, op. cit., p. 78

الشدة القاسية على المتعلمين ، ومع ذلك فهناك شواهد على استخدام النصائح فى التهذيب بدلا من عمليات القمع والتعذيب .

التنظيمات المدرسية: كان الأطفال يظلون فى حضانة أمهاتهم حتى سن الثالثة ، واعتبر المنزل مدرسة الطفل حيث يتعلم القواعد الأولى للحياة باحتكاكه بوالديه ورفاقه فى اللعب . وقد عرف الأطفال اللعب ، فكانت للبنات الدميات ، وللصبيان لعب على شكل التمساح ، وعندما يصل الطفل إلى سن الخامسة يدخل المدرسة حيث يتعلم الكتابة . وكانت المدارس خاضعة للحكومة التى تمولها وتشرف عليها . ويبقى التلاميذ فى هذه المدارس إلى سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة حيث كانوا يدرسون مهنة من المهن ، وكان من الأمور الشائعة أن يغير الطالب مهنة بأخرى . وتتضمن الدراسة تدريباً عملياً بعد سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، ويظهر أن الطالب كان يتقاضى بعض الأجر عن عمله فى فترة التدريب . أما الطلبة الذين يريدون دراسة اللاهوت والمسائل الدينية فكانوا يلتحقون بكليات المعابد بعد سن السابعة عشرة . وتتوقف مدة الدراسة على الوظيفة الكهنوتية التى يعد الطالب لها .

وعرف نوع التعليم الذى يطلق عليه التلمذة الصناعية ، فينضم الطالب إلى من هو حاذق فى صناعته ، ويتتلمذ عليه . وكان هذا النوع من التعليم خارج نطاق المدارس بصورتها النظامية .

وتشير نصوص مصرية قديمة إلى « الاصطبل الملكى للتربية » ، ويرى البعض أن رئيس هذا (الاصطبل) كان المسئول الأول عن التربية ، ورأى آخر أنه كان مدرسة عسكرية التحق بها أبناء النبلاء ليتعلموا الكتابة والعلوم العسكرية .

المعلمون : عهد تعليم مبادىء الكتابة إلى موظفين حكوميين ، وإليهم عهد أيضاً الإشراف على نسخ المواد المكتوبة ، والتى كان الطلبة يقومون

---

(١) Woody, Thomas, op. cit., p. 60

بنسخها ، وما فوق. هذه الأعمال البسيطة كان يعهد إلى أفراد من جماعة الكهنه المسئولين عن تدريس الدين والمحافظة على التراث الأدبي والديني ، كما عهد كذلك إلى الكهنة تدريس العلوم والرياضيات ، بل كانت سيطرتهم على التعليم العالي لأبناء الطبقة (الراقية) سيطرة كاملة .

ومما يذكر بالفضل أن المصريين القدماء أبقوا للأسرى ثقافتهم ، فقد كانت آلهة مصر لا تمانع في إستمرار وبقاء آلهة الأسرى من الدول التي أخضعتها مصر .

ويكاد يتفق كل المؤرخون على أن سيطرة الكهنة على التعليم النظامي قد أعطاهم السيادة على العقل المصري القديم ، وباتحاد الكهنة مع الهيئة الحاكمة لتحقيق أهداف مشتركة - أمكن لثقافة الأمة أن تستمر محتفظة بطابعها دون تغيرات تذكر

الطلبة : لم يدخل المدارس إلا عدد محدود من التلاميذ وخاصة في مراحل الدراسة العليا . وقد خضع الطلبة لنظام صارم أشاع في نفوسهم خوفاً مستمراً . ومع ذلك فان بعض الكتابات المصرية القديمة تذكر أن بعض الطلبة انغمسوا في حياة لا تليق بالخلق الطيب ، وأقبلوا على شرب البيرة والنبيذ بكميات كانت تفقدهم وعيهم ، وكثيراً ما عبر المدرسون عن استنكارهم لموقف الطلبة .

ولا يسمح للبنات بالإلتحاق بالمدارس ، ولكن بنات الطبقات الاجتماعية الراقية كن يدرسن نفس المناهج التي كان يدرسها الأولاد ، ولكن على أيدي مدرسين خصوصيين . ويساورنا العجب لحجب التعليم عن البنت مع ما نالته المرأة في مصر القديمة من مركز أشرت إليه سابقاً .

مواد التعليم : سيطرت السلطات الرسمية والدينية سيطرة كاملة على المدارس وإن لم تنص القوانين على ذلك ، بل تحكم العرف في إبقاء هذه السيطرة . أما هيمنة هذه السلطات على تدريب الفنانين والصناع فكانت غير مباشرة ، إذ أن الفن والصناعة قد خضعا لمتطلبات السلطات الرسمية والدينية .

ويلوح أن مصاريف الدراسة كانت قليلة جداً سواء في المدارس العامة أو

كليات المعابد . وكان الوالدان يمدان ابنهما بالطعام حتى يصل إلى صفوف مهنة الكتاب ، وحينئذ كانت تصرف له وجبات مجانية من المخازن الملكية . أما كليات المعابد فبحكم ارتباطها بهذه الأماكن الدينية فكانت - بفضل البذخ فى تقديم القرابين - غنية جداً ، ونعم فيها الطلبة بحياة من الرغد جديرة بالذكر.

* * *

هكذا كانت التربية المصرية حافظة للثقافة وعاملة على استمرار بقائها ، وإذا كانت مصر قد حققت تقدماً هائلا فى ميادين مختلفة ، فقد يرجع الفضل فى ذلك إلى طبقة مختارة كان لديها من الوقت والتفرغ والبواعث ما أتاح لها فرص التفكير والإنتاج ، بل إن التعليم النظامى كان فى أيدى هذه الطبقة توجهه الوجهة التى تريدها ، وبذلك سيطرت على عقول المصريين أجيالا طويلة . لقد رأى المصريون مجتمعهم على أنه من خلق الآلهة ، ومن أجل هذا فهو أحسن المجتمعات . ولم يدر بخلدهم أن يعبثوا بالتغيير فى هذا المجتمع وإلا غضبت الآلهة .. ولذلك فشلت محاولة أخناتون فى دعواه للتوحيد . وكان على البشرية أن تنتظر قروناً أخرى ورجالا أخر لتهضم هذه الفكرة .

ولا يجب علينا أن نترك زمن الفراعنة دون أن نشير بفخر متزن واعتزاز عاقل إلى نجاح رحلة « رع ٢ » والتى قام بها هايردال النرويجى ومعه سبعة من جنسيات مختلفة رافعين علم الأمم المتحدة على مركب من البردى عبرت المحيط الأطلسى . وقد اختلفت الآراء فيما إذا كان المصريون القدماء قد سبقوا كولمبس إلى العالم الجديد ، وحول اتصالهم بأهل المكسيك ، وحول وجود أهرامات مكسيكية على غرار الأهرامات المصرية .

وقد يكون من الأوفق ألا نتعجل القول بأن المصريين القدماء قد اكتشفوا العالم الجديد ، وأنهم أقاموا حضارة هناك ، كما يجب علينا أن نأخذ بحذر شديد كل ما قيل عن وجود مسلات « وعددها سبع » على سطح القمر التقطتها عدسات رواد الفضاء . وبعد فان آلاف الأسئلة تنتظر فى لهفة إجابات شافية.

وسواء وصل المصريون القدماء إلى أرض الأمريكتين أو لم يصلوا فانه

مما لا شك فيه أن ما خلفوه من تراث مادى وفكرى لا يمكن التقليل من شانه. ثم إنه قد جاءت على مصر فترات أصابها خمود وركود ، وغزاها غزاة فى القرون القليلة السابقة لميلاد السيد المسيح. فقد غزاها الفرس وأقاموا بها سنوات طويلة . وجاء الإسكندر المقدونى وبنى الإسكندرية وكانت جامعة عظيمة فيها

جامعة الإسكندرية

ورث البطالمة مصر بعد موت الإسكندر المقدونى ، وإليهم يرجع الفضل فى جعل الإسكندرية مركزاً ثقافياً عالمياً ، بل إنها انتزعت القيادة الثقافية من آثينا الإغريقية ، وقد انتهج البطالمة خطة قوامها إنشاء دار خاصة للدراسة والبحث أطلقوا عليها اسم الموسيون Mouseion ومعناها دار ربات الفنون(١). وقد أثرى ملوك البطالمة هذه المكتبة بحوالى سبعمائة ألف لفافة بردى من المصنفات اليونانية والمصرية والعبرية ، والأثيوبية وغيرها .

كما أقبل على الإسكندرية العلماء والشعراء من شتى أنحاء العالم المعروف وقتئذ ، ومنهم كاليماخس وثيواكريتوس ، وأبولونيوس الرودسى وغيرهم من القمم الذين أعطوا الإسكندرية اسماً لامعاً لجامعتها ومكتبتها ، حتى سميت هذه الحقبة باسم الأدب الإسكندرى ، وذلك لشدة تأثير مدرسة الإسكندرية على الإنتاج الأدبى فى العالم فى ذلك الوقت . ولم يقتصر التأثير الإسكندرى على ميدان الأدب بل قامت بها حركة علمية ارتفعت بعلوم الرياضة والطبيعة والفلك والهندسة إلى آفاق جديدة متقدمة . وكان من علماء الإسكندرية اقليدس العالم الرياضى والهندسى ، وأرشميدس صاحب قانون الطفو ، وأراتوسثنيس صاحب المحاولة الكبرى لقياس محيط الكرة الأرضية(٢) .

هذا، ولنا لقاء آخر مع مدرسة الإسكندرية وعنها، وفى تأثيرها التربوى والتى لا تزال انطباعاتها وتأثيراتها فيما ليس بالقليل من أنظمة وطرائق ومناهج التعليم فى عالم اليوم .

---

(١) مصطفى العبادى : مصر من الأسكندر الأكبر إلى الفتح العربى ص : ١٤٣ .

(٢) نفس المرجع السابق . ص ١٤٤ – ١٤٥ .